٥١٥٠

مكتبتى ١٥

سبحين الكوز

وقصص أخرى

بقلم : صلاح عبد السيد
رسوم : منى جامع

دار المعارف

تصميم الغلاف : **محمد أبو طالب**

دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة: ج.م.ع.

إعداد الماكيت : **أمانى والى**

كانَ هُنَاك فلاحٌ عَجوزٌ، يُدعى الشَّيخ صَابر، يَعيشُ مَع زَوجتهِ الَّتى تُدعى صَابرين، فى كُوخٍ صَغِيرٍ، بالقربِ من النَّهرِ.

وكَان الشَّيخُ صَابر، يَزرعُ قطعةً صَغِيرةً من الأرض بالخضراوات، ويحملُهَا ليبيعها فى سُوقِ المدينةِ القريب، ويَعيش من عائدها، هو وزَوْجَته صَابرين.

وبرغم ضآلة ما كَانَ يحصلُ عليه من ثمن، إلا أنه كان قانعًا به، حامدا لربه وشاكرًا له.

ولَمْ يَكنْ يُعكرُ صَفو الشَّيخِ صَابر، غَير تَذكره كُلّ حِين، لغرق طفله الوحيد فى النَّهر مُنذ سنوات، لَكنه كان سريعا ما يدعو الله له بالرحمةِ، طَالبًا منه أنْ يعوضَهُ عنه خَيرًا.

واستجاب اللهُ لدعاء الشَّيخ صَابر، فَحملتْ زَوجته صابرين، بعد تلك السِّنِين، وأنجبتْ لَهُ طِفلاً جميلا أسماه حسن.

فرحَ الشَّيخُ صَابر فَرحًا شَدِيدا بطفله الصغير، وأخَذَ يَشكرُ الله، ويصلى لَهُ علَى نعمته الجَميلة.

بل إنه لم يكن يَبرحُ الكُوخَ على الإطلاق، فِى أوقات فراغه. كان ينكفئ فوقَ فراش الطفل، ينظرُ إليه حَتَّى تَدمعَ عَينَاه. كانتْ مَحبة الطفل، تكبر فى نَفسِ الشَّيخ صَابر كل يوم، حَتَّى انقلبت خوفًا.

أصبحَ يَخافُ عَلَى الطفل، مِنْ كُل شَىءٍ، ومن كُل أحد. وعِندمَا كَبرَ الطفلُ قَليلاً، كَان خوفه قدْ أصبحَ كبيرًا. وقَررَ الشَّيخُ صَابر، ا ج الطفلُ عَلىَ الإطلاق من الكُوخ. بل إنه غلَّق الأبوابَ والنوافِذ كُلَّها.

ولطَالَما حَاولتْ زَوجتهُ أنْ تثنيه عَنْ ذَلِكَ، وَهِيَ تَطلبُ منه أنْ يَسمحَ للطفل بالخروج مِن الكوخ، ليلعَبَ مِثلَ بقية الأطفال، لكنه كَان يَقولُ لَهَا: إن هَذَا الطفلَ هُوَ فُرصتهم الأَخيرة، وأنه لن يُعوضَ إذا فُقد.

فَكَانتْ زَوجته تَصمتُ ولا تَتَحدثُ.

لَكن حسن كَانَ يَسمعُ الأطفَال وهم يَلعبون بالخارج، ويَسمعُ صياحهم وتَهليلهم، فَيطلبُ مِن وَالدِه أنَ يخرَجَ من الكُوخ، ليلعبَ معهم، لكن والده كان يرفض ذلك، ويقول لهِ:

إنَّنى أخشى عليكَ يَا حسن.

فيجيبه حسن قَائلاً: ولِمَاذَا لا يَخشى آباء هَؤلاء الأطفال عليهم يا والدى؟.

فَيرد وَالده عَليه: إننى أحِبكَ حُبا جَما يا حسن.

فيجيبه حَسن: وهل آباء هؤلاء الأطفال، لا يحبونهم حُبا جَما يا والدى؟.

ولما ضَاقَ والده بأسئلتهِ الكَثيرة، صَارحهُ بالحَقِيقة.

قَالَ لَه: يَا حسن لَقَدْ غَرقَ أخُوكَ الطِّفلُ بالنَّهر منْذ سَنواتٍ، وعشنا أنا وأمك فى حزن بعد فقده.

كَان الكُوخُ صَامتًا مِثل مَقبرة، وَأخذنَا ندعو الله أن يرزقنا بطفل بديل، إلى أنَ جئت أنتَ، ولستُ على استعدادٍ بعد ذَلك، أنْ يَأخذَك النَّهرُ منىً.

فَقَال لَهُ حسن: لن أذهبَ إلى النَّهرِ يا والدى.

فَقالَ لَهُ والده: وما الَّذِى يَضمنُ لى ذَلِك؟.

فأجابَهُ حَسن: أقسمُ لَك عَلىَ ذَلكِ.

فَيرد وَالدُهُ: رُبما لاَ تذهبُ إلى النهرِ، لَكن قدْ تذهبُ إلى خَطر آخر..

وضَاقَ حسنٌ بتصميم وَالده عَلَى سجنِه دَاخل الكُوخ، لَكنــه كـان كلمـا سمـع تهليلَ الأطفالِ وصياحهم، عَادَ إلى سؤالِهِ مِنْ جَدِيدٍ:

أريدُ أنْ ألعبَ مَعَ الأطفَال يَا والدى؟.

وَفكرَ الشَّيخُ صَابرُ قَليلاً، ثُمَّ قَالَ لَهُ: سَتلعبُ مَعَ الأطفالِ يا حسنُ.

فسأله حسن وهو لا يصدقُ نَفسهُ: وَكَيفَ ذَلِكَ يَا والدى؟.

فَقالَ لَهَ وَالده: عَليكَ الآن أنْ تَذهبَ إلى فِرَاشك، وفى الصَّبَاحِ سَترى.

وأسرعَ حَسنٌ إلى فرَاشه سَعِيدًا، وهو يَحلمُ بالصَّباح.

وفى الصباح، أسرع الشَّيخ صَابر، إلى طِفـل جَـارهم حسَّـانَ، وطلـب منـه أن يأتى، ليلعبَ مع طفله حسَن، بداخل الكوخ.

وأسرع حسَّان مَعَ الشَّيخ صَابرِ، إلى داخل الكُوخِ.

وعندما رآه حسن فرح فرحاً شـديدا، وسمـع وَالـده يقـول لـه: لقـد أخـبرت حسَّان بأنك تريد أن تلعب معه، فجاء إليك من تلقاء نفسه.

فَشكره حَسن، وأخَذ يَتحدثُ إليه.

سَألهُ حسَّان: ما الذى يَمنعـهُ مِـن الخـروجِ مـن الكُـوخِ، واللَّعِـبِ مَعَـهُ ومَـعَ الأطفال؟.

فأَخبره حسن بأن أبَاه لا يَسمحُ لَهُ بذَلِكَ.

سَألَهُ حسَّان: وكَيفَ تَلعب وحدك فى هذا الكُوخِ؟.

أجَابه حَسن قَائِلاً: إن لَدىَّ لُعَبًا كَثيرةً، جَلَبَها أبى لى.

وجرَّ صندُوقًا كبيرًا مِـنْ أسـفل السَّـريرِ، وأخـرجَ مِنـه لُعْبـة صَغِـيرة، لفَـارسٍ يَمتَطى ظَهر حِصَانٍ.

نظر إليها حسَّان مبتسما وقَالَ: إنه فارس من خَشبٍ، وحِصان مِنْ خشب!!..

هَلْ لَمْ تَرَ قبلاً فَارسًا حَقيقيا، وحِصانًا حَقِيقيًّا؟.

فأجَابَهُ حَسن: بَأنه لمْ يَرَ ذَلِك.

هَلْ رَأيْتَ أنتَ؟.

فَقَالَ لَهُ حَسَّان: إنَّ أبى فارسٌ مَشهورٌ، حَصَلَ عَلَى ميداليات وكُئوس، فى رياضة الفروسية.

وإنَّ لديه فَرسًا يُدعى سِمسم، يَطعمه بيده السُّكر، فى كُلِّ صَباح، وأَن أباه يعده، ليكونَ فَارسًا بعد سنوات.

عند ذَلِك أيقن حسن، أن هذه اللعبة ، لَنْ تَروق لَهُ، فَأعَادَهَا ثانية إلى الصُّندُوق، وأخرج منه لعبة أُخرى، وقال له: انظر إلى هذه الطائرة الجميلة.

فسَأله حسَّان: وأين جنَاحها الآخر؟.

فأجابه حسن: لقد انكسر الجنَاح الآخر.

فَقَال لهُ حسَّان: إنها لَنْ تَطير حَتَّى لو كَان لَها عَشرة أجنحة.

ثم سَألهُ: هَلْ لَمْ تَرَ طَائرةً حقيقية قبلاً؟.

فقال له حسن: إنه لم يَرَ طَائِرةً حَقيقية قبلاً.

ثم سأله: هل رأيتها أنت؟.

فأجابه حسَّان: بل سَافرت فيها مَعَ أبى إلى أوروبا.

إننا نسافر فى كُلِّ صيف، لنزور المتاحف هُنَاك.

فأيقن حَسَن أنْ هَذه الطَائِرةَ اللعبةَ، لَنْ تَروق لَهُ، فأعادَهَا ثانية إلى الصُّندُوق.

ثم أخرجَ مِنـه دَبابـةً صَغِيرةً، لَـهَا مِدفـعٌ صَغيرٌ، وقـالَ لحسَّـان: انظـر إلى هَذهِ الدَّبابَة.

سأله حسَّان: ماذا يطلقُ هَذا المِدْفَعُ؟.

أَجابَه حسن قائلا: إنه يطلقُ رشاشًا من ماءٍ،

ضَحكَ حسَّان وقَالَ: ومَاذَا يفعلُ البستَانى إذًا؟!!.

ثم سأله: هل لم تر دبابةً حقيقيةً قبلا؟.

أجابَه حسن قائلاً بأنه لم يرَها.وسَألَهُ: هل رَأيتهَا أَنتَ؟.

أجَابـه حسَّـان قـائلاً: لقـد رأيتـهَا، ورَأيـتُ المِدفَـع، والطـائِرةَ الحربيـة، والصاروخ، وكُل مُعِداتِ الحربِ.

سَألَهُ حَسن : وأينَ رأيتَها ؟

أجابه حسَّان: إنَّنى رأيتها فى المتُحف الحربى، وفى معرضِ الغَنـائِمِ، وفـى بَانُورَامَا الحَربِ.

أيقن حسن أنَّ هَـذهِ الدبَّابـةِ اللُّعبـة، لَـنْ تَـروقَ لحِسَّـان، فأعَادهَـا ثَانِيـةً إلى الصُّندُوق، وأَخرج قِطَارًا صَغيرًا يَدورُ فوقَ قُضبان، وداس فوق زر، فانطلقَ القطارُ يَدُورُ ويدور، وحسن يَضحكُ سَعيدًا بقطَاره.

سأله حسَّان: لماذا لا يَتوقفُ هَذا القِطارُ عِندَ المحَطَّاتِ؟. أجَابـه حَسـن: أى مَحَطات؟.أخبره حسَّان أن كُلَّ قِطَار، يَحملُ رُكَابًا، ولابد لهُ من أنْ يَتوقفَ عندَ المحطَّاتِ، لينزلَ مِنهُ رُكَابٌ، وليصعدَ آخَرون.

ثم سَأله: هَلَ لَمْ تَرَ قطارًا قَبلا؟.

أجابه حَسن: لا.. لَمْ أرَ قِطارا قبلا.

هَلْ رأيتَ أنتَ قَطارًا؟.

قَالَ لَهُ حسَّان: نَعمْ، وكثيرًا مَا سافرتَ بالقطار مَعَ أبى.

أيقَنَ حَسن أنَّ هَذهِ اللُّعبةً «القِطـارَ»، لَـنْ تَـروقَ لحسَّـان، فأعَادَهَـا ثانيـة إلى الصندُوق.

ثُمَّ أخَرجَ لُعَبةً أخرى، وَقَالَ لحسَّان: انظر إلى هذه اللُّعبـة.إنـهَا لُعبـة شَـائقة لكرة القَدم.

عَلى كُلٍّ مِنا أنْ يَـأخَذَ جَانبًـا، فَلتـأخذ هَـذا الجـانب، وآخـذ أنـا الجـانب المقابل، وعليك أنْ تضغطَ فَوقَ هَذا الزر، لتنطلقَ الكُرة إلى الجول.

ودَاسَ فَوقَ الزر، وأخذَ يَصيحُ: جُول، جُول.

ضَحكَ حسَّان وَهُوَ يَقولُ لَهُ: لَيستُ هَذهِ هىَ كُرة القدم، إنَّ كرة القَدمِ تَلعـبُ بالقدم، ثُمَّ إن الكُرةَ كبيرةٌ، فى حجمِ البطيخةِ.

أسرعَ حَسنٌ إلى الصُّندُوقِ يخرجُ مِنه كرةً كبيرةً، ويقولُ: مِثل هَذهِ؟.

قَالَ لَهُ حسَّان: مِثلُ هذه.

إنَّ هَذهِ الكرةَ تَلعبُ بالقدم.

قَالَ لَه حسنٌ: هَيَّا لنلعبَ بالقدمِ؟.

أجَابه حسَّان: لَكِن الكُوخ ضَيـقٌ، ولا مكـان بـه للعـب، وأخشـى أنْ تحطـمَ الكرةَ بعض الأشياءِ.

لَكن حسن قَالَ لهُ: لا تَخفْ، لن يتحطم شىءٌ.

وَضع حسن الكرة أمامه، وقذفَها بقدمِه، فـاصطدمت بصـورةِ أبيـه، المُعلقـةِ فَوقَ الحَائطِ، فَسقطتْ فَوقَ الأرض وتَحطمتْ.

نَظَر إليهَا حَسنٌ فى خَوفٍ، وهوَ يَقولُ: سَيَغضبُ وَالدى مِنى.

قَالَ لَهُ حَسان : أنتَ الَّذِى حطمتَها.

أجابَهُ حَسن: سَأصَارحُ والدى بالحَقيقةِ، فرُبمَا غَفرَ لى.

عِندَ ذَلكَ طَلبَ حسَّان مِنْ حَسن، أنْ يَسمح لَهُ بـالخرُوج، لأنَّ مَوعَـدِ رِيَاضـة السِّبَاحةِ قَدْ حَانَ.

سَألهُ حسن: وأين تَسبحُ يا حسان؟.

قَالَ لَهُ: فى النَّهر.

صَرخَ حَسن فى خَوفٍ: إنَّ النَّهَر غدَّارٌ، لَقَدْ ابتلعَ أخِى، إنى أكرهُه.

سَألهُ حسَّان: هَلْ كَانَ أخُوكَ يُجِيدُ السِّبَاحَةَ؟.

أجابه حسن: لا، لم يكنْ يُجيدُ السِّباحةَ.

قال له حسَّان: إنه الَّذى أغرق نفسه ، لا النَّهر.

سأله حسن: وهل تُجِيدُ السِّبَاحَةَ؟.

أجابه حسَّان: نعم، لقد علَّمنى والـدى السـبَاحَةَ، كَمَـا علَّمنـى قَبـلاً رُكُـوب الخَيل.

ثم نظر إلى سَاعته ونهض واقفًا، وَهُوَ يَقول لحسن: بإذنك يا حسـن، فموعـد السِّباحةِ حلَّ.

سَأله حسن: هل أنتظرك فى الغد، لنلعب سويا بداخل الكوخ؟.

أَجابَه حسَّان: إنَّ مَا نَلعَبه بالخَارجِ، لَنْ نَستطيعَ أنْ نَلعبَهُ بدَاخلِ الكُوخ.

سَألَه حَسن: ومَاذَا تَلعَبُونَ بالخَارج؟.

أجَابه حسَّان: إنَّنَا نَتَسلق أشجارَ التوتِ، ونَأكُل مِنْ ثِمَارهَا، ونَصطاد السمكَ من النهر، وَنلهو مع العصافير.

عند ذلِكَ أدركَ حَسن، أنَّه لَنْ يَستطيعَ أنْ يَلعبَ بِدَاخل الكُوخ، مَا يَلعبُه الأطفَال فى الخَارج، فمَضى إلى البَابِ يفتحه لحسَّان، وَهُوَ يَقولُ: تفضلْ بالخرُوج يا حسَّان.

ومَضَى حسَّان خَارجًا.

جَلَسَ حَسن حَزينًا.

وأثنَاء ذَلِكَ، دَخَلَ إليه وَالدُهُ، فَوجَدَه عَلَى هَذه الحَال.

فسأله: مَا الَّذى يَحزنكَ يا حسن؟.

أجَابَهُ حَسن قَائلاً: لَقَدْ تَركنى حسَّان وَمَضَى يَا وَالدى.

لَقَدْ ضَاقَ بالكُوخِ.

قَالَ أنَّ مَا يَلعبونهَ بالخَارج، لاَ يَصلحُ بداخل الكُوخ.

سأله والده: وما الَّذى يَلعبونه بالخَارج يَا حسن ؟.

أجَابهُ حَسَن: إنَهم يَتسلقُون أشجَار التوت، وَيأكلون مِنْ ثِمَارهَا يا والدى.

قَالَ لَهُ والدُه: سأجعلك تَتَسلقُ شجرةَ التوتِ وتَأكلُ من ثمارهَا مثلهم يا حسن.

سَألهُ حسن: وكَيفَ ذَلِكَ يا والدِى ؟

قَالَ لَهُ وَالده: اسرِعْ الآن إلى فِرَاشكِ، وفى الصَّبَاحِ سترى. وفى الصَّبَاح أسرعَ الشَّيخُ صَابر إلى حَقلِه، فاقتَلعَ منه شَجَرة تُوتٍ مُثمرة، وَحَفَر لَهَا حُفرةً كَبيرةً، فى منتصفِ الكُوخِ، وزَرَعَها بهَا.

وعِندمَا استيقظ حَسن مِنْ نَومـهِ ، وَجَـدَ فـى مُنتَصـف الكُـوخ، شَـجرة تـوتِ مُثمرة، فَأسرعَ إليها غَيرَ مُصدق، وهَو يَسألُ والده: كَيفَ جَاءتْ شَـجرةُ التـوتِ إلى الكُوخ يا وَالدى؟.

قَالَ لَهُ وَالده: لَقَدْ قلتُ لَهَا، إنَّ طفلى حَسن يُحِبك يا شجرة التوت، ويريـدُ أنْ يَأكلَ مِن ثِمَارك، فجاءتْ إليكَ مِنْ تلقاءِ نَفسِهَا.

أسرعَ حسن إلى شَجرة التُّوت، يَحضنُهَا ويُقبلُهَا ، ويَقولُ لَـها: إننـى أحبـك يا شجرة التوت.

وأخذَ يَأكلُ مِن ثِمَارها الحلُوة، ويربتُ عَليها، ويُغنى لها.

وظَلَّ طِيلةَ اليوم، يَأكلُ مِن ثمَارها ، حَتَّى إنَّ والده، طَلَبَ مِنـه، وَقَـد حَـانَ مَوعدُ نومهِ، أنْ يَذهَبَ إلى فِراشهِ، فالشَّجرةُ باقية إلى الصَّباحِ.

وأسرعَ حَسـن إلى فِراشـه، لَكنـه فـى الصَّبـاَح ، وَجـدَ ثَمـرات الشَّـجرةِ وقَـد تَسَاقطتْ، وأوراقَها وَقَدْ ذَبلتْ ، وسَمعَ لهـا حَشـرجةً تَضطـربُ: إنَّنـى أمـوتُ يَا حسن.

أخَذَ حسنٌ يَصرخُ عَليها: لِمَاذا تَمُوتِين يَا شَجرةَ التُّوت؟ لِمَاذا تَموتِين؟.

أسرعَ وَالده إليه، عَلَى صَوتِ صرَاخِهِ، وَهُوَ يَسألهُ:

لِمَاذَا تَصرخُ يَا حسن؟.

أجابه حسَن: لَقَدْ مَاتت شَجَرةُ التُّوتِ يا والدى.

لَماذا مَاتتْ شَجرة التوت يا والدى؟.

قال لَه والده: لَقَدْ حَانَ أجَلُهَا يَا حسن.

سَأله حسن: وَهَلْ حَانتْ آجالُ أشجَار التُّوت فِى الخارج يا والدى؟.

أجابه والده: لا.. لَمْ تحنْ آجالها بَعد.

أخذَ حسن يَصرخُ: ولِمَاذَا شجرتى وَحدهَا هِيَ التى تَموتُ يَا والدى؟.

قَالَ لَهُ والده: دَعك مِنَ شَجرة التوت يا حسن ، واطلب شَيئًا آخر.

مَاذَا يَلعبُ الأطفَالُ فى الخَارج؟.

أجَابه حَسن قَائلاً: لَقَدْ قَالَ لى حسَّان أنَّهم يَصطادُون السَّمَكَ.

قَالَ لَهُ وَالده: اذْهبْ إلى فِراشك الآن ، وفى الصَّبَاحِ سَتصيدُ السَّمكَ.

وأسرع حسن إلى فراشه، وهو يُمنِّى نَفسَه بصيد السَّمكِ فى الصَّبَاح.

وفى الصَّباحِ البَاكرِ، أسرع الشَّيخُ صَابر إلى النَّهر، وألقَى بشَبكته فيه، واصطاد عِدَّة سَمكاتٍ، أسرع بها إلى الكُوخ، وَوضعَها بداخل بَرمِيل كبير، ملأه بالماءِ ، وعِندما استيقظَ حسن من نَومهِ، وَجَد السَّمَكَ بداخل البرمِيل، وسَمعَ والده يَقولُ: لقَد سَمعك السَّمك تطلب أن تَصيدَه، فجاء إليك بغير صيد.

فَرحَ حسن بالسَّمَك، وَأخَذَ يَشكره ويَتأملهُ وهُو يَضربُ بزعانفه الماء، وهُو يقولُ لهُ: إننى أحبكَ يا سَمك، وأحِب منظرك الجَميل.

وظَلّ طِيلة اليوم ، يَتأمله فى حُب لَكنه فى صَباح اليوم التالى ، رأى السَّمَك يَنقلبُ فوقَ ظهره، وسَمع لَهُ حَشرجة تضطربُ: إننى أموتُ يا حسن.

أخَذَ حَسن يصرخُ عَليه: لا تَمتْ أيها السَّمَك.

لا تَمتْ.

وجَاءَ والده عَلى الصراخ، يَسألهُ: لِمَاذا يَصرخُ؟.

قَال لهُ حَسن: لَقَدْ مَات السَّمك يا والدى؟.

لماذا مَاتَ؟.

أجَابهُ والده: لَقَدْ حَان أجله.

سأله حسن: وَهَلْ حَان أجَل السَّمَك فى النَّهرِ؟.

هَلْ مَات سَمَك النَّهر كُله؟.

أجابه والده قائلاً: لاَ، لَم يَمتْ سمك النَّهر كُله.

صَرَخَ حَسن: ولِمَاذَا يَموت سَمَكِى؟.

لِمَاذَا سَمَكى وَحده هُوَ الَّذى يَموتُ؟!!.

قَالَ لهُ وَالده: دَعَك مِن السَّمَك الآن ، واطلبْ شيئًا آخر يَا حسن؟.

أجَابه حَسن: أخافُ إنْ طَلبت شيئًا آخر، أنْ يصِيبه ما أصاب شَجرة التوتِ والأسمَاك يا والدى.

قَالَ لَهُ والده: بل اطلَبْ ولا تَخشَ شيئا.

مَاذَا يَلعبُ الأطفَالُ بالخَارجِ يَا حَسن؟.

أجَابه حَسن قَائلاً: إنَّهم يَلعبُون مَع العصَافِيرِ يَا والدى.

قَالَ لَهُ والده: سَتَلعبُ مَعَ العصافيرِ مِثلهم يا حسن.

سَألهُ: حَسن وكَيفَ ذَلِكَ يا والدى؟.

أجَابهُ والده قائلاً: اسرع الآن إلى فِرَاشك، وفى الصَّبَاح سَتَرى.

عِند الفَجر، أسرع الشَّيخ صَابر إلى حَقلهِ، فَقبضَ عَلَى عددٍ مِن العَصَافير، مِنْ أعشَاشها، وَجَاءَ بهَا، وأطلَقهَا بداخلَ الكُوخِ.

عندما اسْتيقَظَ حَسَن مِنْ نَومِهِ، وَجَدَ العَصافِير تَطِيرُ وتُزقْزِقُ بداخل الكُوخ، فأسرع إليها فى فَرحةٍ، وَهُو يسألُ والده: كيفَ جاءت هَذه العَصافِير إلى الكُوخِ؟.

أجَابَهُ والده قَائلاً: لقد قُلت لَهَا إنَّ حسن يُحبك أيتها العصافير، وأنه يطلب منك الحضور، لتلعبى مَعهُ بالكُوخِ، فَجاءت إليك من تِلقاءِ نَفسهَا.

أسرع حسن إلى العصافيرِ يَشكرُهَا، ويَقولُ لَها:

إننى أحبكَ أيتها العصافير.

وأَخذَ يَتسابقُ مَعهَا، ويَستمعُ إلى زقزقَتها الجميلةِ، لكنه بَعدَ قليلٍ، وَجَدَ العَصافيرَ تَكف عَن الزقزقةِ، وَوَجَدَهَا تَمتَنعُ عَن الطيرانِ.

اقَتربَ مِنها يسألُهَا: لِماذَا كَففتِ عَن الزقزقةِ؟.

قَالت العَصافير: إنَّ الزقزقةَ لا تكون بداخل القفص.

سألها حسن: أى قَفص؟.

أجَابته العصافير قَائلة: الَّذى تَعيشُ به.

إن الكُوخَ المغلقَ، والَّذِى لاَ تدخله الشَّمس ولا الهواء، هُوَ بمثابة القفص.

أخذَ حسن يرجوَها، أن تزقزق من جديدٍ، وأَن تَطيَر، لَكِنَ العَصافيَر قَالت: إنَّها لا تَستطيعُ الطيرانَ بداخلِ هذا القفص الكبير.

إنَّها لا تَطيرُ إلا فى الفضاءِ، وبين الحقُول، وإنَ عليه أنَ يَفتحَ لها النوافذ لتَطِيرَ إلى الفضاء، وإلى الحَقول.لَكن حسن قَالَ لها: إنَّه لَن يفتحَ لها النوافذ، ولَن يَتركُها تَطيرُ إلى الفضاءِ ، وإلى الحقول، بل إنَّها ستظلُ مَعَه بداخل الكُوخِ، يَلعبُ مَعَها، ويستمتعُ بوجودهَا.

أجابتهُ العصافيرُ بأنها لَنْ تَلعبَ، وَلَنْ تزقزقَ، ولن تَطيرَ. وأسرعتْ العصَافير تختبئُ تَحتَ المقَاعدِ والأسرَّة.

أخَذَ حسن يَصرخُ عليها، لكى تَخرُجَ من أَسفلِ المقَاعدِ والأسرَّة، لكنّهَا لم تعطه جَوابًا.

جَاءَ الشَّيخُ صابرٌ، عَلىَ صراخِ حسن وهَو يَسألُهُ:

لِماذَا تَصرخُ يا حسن؟.

أجابه حسن، بأن العصافير كفَّت عن الزقزقةِ والطيران، وأنَّهَا اختفت من أسفلِ المقاعدِ والأسرَّة.

فلمَاذا فَعلت ذَلِكَ؟.

أجابه والده قائلاً: رُبَما تَعبت من الزقزقةِ والطيران يا حسن.

سَأله حسن: وهل تَعبت العَصافيرُ فى الخَارج، من الزقزقة والطيران يا والدى؟.

أجَابَه والدُه: لا.

سَألهُ حَسَن: ولِمَاذَا عَصَافِيرى وحدهَا، هى التِى تَعبت من الزقزقةِ والطيران؟.

قَالَ لَه والده: دَعكَ مِن العصَافير، واطلبْ شَيئًا آخر يا حسن.

قَالَ لَهُ حَسَن: لَمْ أعدْ أريدُ شَيْئًا..

إنَّ كُلَّ شَىءٍ يأتى إلى الكُوخِ، إمَا أنْ يَموتَ، وإمَا أنْ يذبلَ.

وفى الصَّبَاحِ لَمْ يَنهضْ حسن مِن نَومِهِ، أحس ثُقلاً فى أطرافه وفى رأسِهِ.

وعِندمَا أحضرتْ والدته إليه الإفطارَ، لَمْ يَتناولْهُ.

وظَلَّ صَامتًا.

أسرعَ والده إليه يَسأله: ما الَّذى بِكَ يَا حسن؟.

هل تَشكُو مِنْ شيءٍ؟.

أجابه حسن: إننى أحس بالذّبولِ يَا والدى.

ويفزعُ الشَّيخُ صَابر.

ما الَّذى أصَابَ حَسَن؟.

إنه يَبدُو مَهزولاً، حَزِينًا.

إننى أوفر لَهُ أجود الطَّعام، وأفضل الشراب، وأجمل الملابسِ.

فما الَّذى يَنقصُه؟.

ويطل عصفورٌ صَغيرٌ، مِن أسفل مَقعد، ويَقولُ لَهُ:

ينقصه الحياةَ يا شيخ صَابر.

فَيقولُ الشَّيخُ صَابر: مَاذا تقولُ أيها العصفور الصغير؟.

فيجيبهُ العصفور الصغيرُ قائلاً: إنَّ طفلك مثلُ العصفور الصغير أيـها الشيخ، لابد أن تطلقه إلى الحياةِ، ليطير ويزقزق.

فيقولُ لَهُ الشَّيخ صَابر: ولَكنى أخشى عَليه من الحياة، لَقَدْ غَرقَ أخوه الطفل فى النَّهر، مُنذ سنوات.

فَيجِيبه العصفورُ الصغيرُ قَائلاً: لقد غرق لأنك لَمْ تعلمه السِّباحةَ.

آثرتَ أنْ تَحتفظَ به بعيدًا عن النَّهر.

اطلقْ طفلك، وعلمِه فنونَ الحياةِ، ولا تخشَ شَيئًا.

ويَقولُ لَهُ الشَّيخُ صَابر: وَلكنى أحب طفلى حبا جما؟.

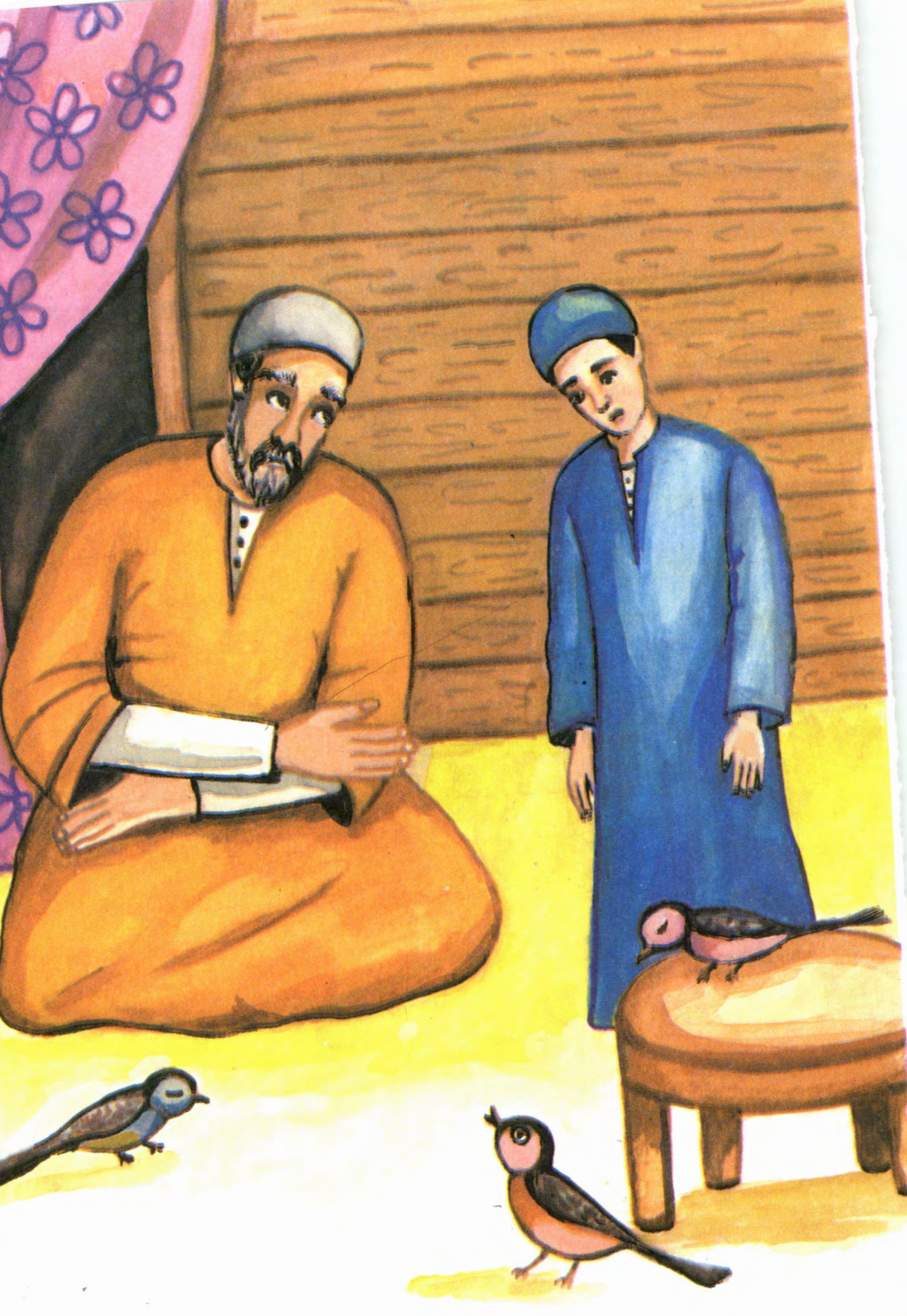

ويجيبه العُصفور الصغير قَائلاً: إن من الحُب ما قتل. اطلق ابنك أيها الشَّيخ، وإلا أصَابه ما أصابَ شَجرةَ التُّوتِ، وما أصابَ الأسماكَ.

ويَفزعُ الشَّيخ صَابر، فيَنهضُ من جَلستهِ، يفَتحُ الأبواب والنوافذ عَلى مَصاريعهَا ، فَتتَدَفقُ أشعةُ الشَّمس، ويَتدفقُ الهواء، فتزقزق العصافيرُ الحَبيسة بداخل الكوخِ، وترفرفُ بأجنحِتهَا.

ويُنَادى الشَّيخ صابر، على حسن قائلا:

هيَّا يا حسن قمْ إلى الحياةِ.

الشَّمسُ تُنَادِيكَ يَا حسن.

الحقُولُ تُنَاديك يَا حسن.

هَيَّا يَا عصفورى الصغِير.

هَيَّا.. رَفرفْ.

سَأعَلمُكَ فنُونَ الحياةِ، ولَنْ أخشى عَليكَ شَيئًا.

ويَنهضُ حَسن مِن رقَدته، يَحس أن الحياةَ تدب فى جسدِهِ، فيقفُ، يَنتصبُ، وَهُوَ يحركُ ذِرَاعيه فى الهواءِ، كَأنه سيهم بالطيران.

ويَنطَلقُ مَعَ العَصافير ، مُرفرفًا، وهُوَ يُزقزقُ، وخَارجًا مِن القَفصِ الكَبيرِ.

★ ★ ★

وجَاء إلىَّ الولد مُصطفى . . ونَادى علىَّ . . فسَمعتُه وأنا نَـائِم.. وقلـتُ: الآن سيمضى.. فلَمْ تكنْ لِى رَغبَة فى أنْ أصحُو.. لَكِن الولدَ مصطفـى ظـلَّ يُنـادِى.. ففتحتْ لَهُ أمِّى - خَالتهُ - الباب وقالتْ لَهُ :

- ادخلْ يَا مُصطفى

- فقَال مُصطفى :

- كيفَ حَالك يا خَالةُ

- فقالت له: كيف حال أُمِّكَ يا مُصطفى

- فقَال مُصطفى :

- أيْنَ سَيد ؟

فَقَالتْ :

- سيد نَائِم فى حُجرتِه . . أيقظه يا مُصطفى . .

فَدَخل مُصطفى إلى حُجرتِى . . وكُنت قَدْ أغلقتُ عَينىَّ مُمثـلاً النَّـوم.. وقبـل أنْ يَمد مُصطفى يدهُ ليُوقظنى.. هَببتُ صائحًا: بخ

فذعرَ مُصطفى وقفزَ عَاليا . . فَقَهقَهتُ ضَاحكًا .

فقالتْ أمِّى :

– أما إنك عيِّل بصحيح

وخرجت أُمِّى مِن الحُجرة.

فَقالَ مُصطفى :

– ما الَّذِى يَجعلُكَ تَنامُ فى يومِ إجَازتِكَ إلى هَذِهِ السَّاعَةِ ؟

قلتُ :

– وَماذَا أفعلُ ؟

قَالَ :

– مَا رَأيكَ فى أنْ نَصِيدَ السَّمكَ ؟

قلتُ :

– لَكِن أُمِّى سَتعترضُ ؟

قَالَ :

– سَأَجعلُهَا لا تَعترضُ . .

وخَرجَ مُصطفى مِن الحُجرةِ . . ثُمَّ عادَ ومعهُ أُمِّى الَّتِى قَالتْ :

– اذهبْ معهُ يا سيد . . لكن حَذار أن يتَسخَ جِلبابُكَ . .

قلتُ :

– حاضر يا أُمِّى .

وحَمَلتُ صِنارَتِى . . ومُصطفى حملَ صِنارَتَهُ . . وسألته :

– هل معك طُعم ؟

فَقَال :

– مَعِى

وخَرجنَا مِن البيتِ . . ومشينا فوقَ جِسرِ النَّـهرِ

قال مُصطفى :

– أعرفُ مَكانًا نَصِيدُ مِنهُ ثُعبَان السَّمك

قلتُ :

– أين ؟

قَالَ :

– عِندَ الصُّخور العالية

قُلتُ :

لَكِن المكانَ مُوحِش

قَالَ :

– هُوَ الوَحيدُ الذى به ثعابين السَّمك

قلت : إننى أحلمُ أن أصيد ثُعبَانَ السَّمك

فقالَ :

هُناكَ تَستطِيعُ أنْ تَصِيدهُ

قلتُ :

– هَيَّا . .

قالَ :

– هَيَّا . .

وأسْرعنَا . .

وذراعِى فَوقَ كتف مُصطفى . وذِرَاع مصطفى فوق كتفى . يُحبنِى مُصطفى . . وأنا أحب مُصطفى . ليسَ لأنَّنا أولاد خَالة . . وَلَكِنْ لأننى . . لأننى . .

لا أعرفُ لِمَاذا أحِبه . . كُل الَّذِى أعرفهُ أننى أحبهُ . . وأحب أنْ يَبيتَ مَعى . . وأنْ يأكُل مَعِى . . وأمى تَضعُ لنا الطَّعَامَ . . فنأكُل مِنهُ ونَضحكُ .

طُولُ النَّهار نَضحكُ .

وأمى تَقولُ لِى : أنتما أخوان يا سيد . . لأن ابن خَالتكَ مُصطفى رَضَعَ عَلَيكَ . . أنا أرضعتُه لشهرين أثنَاء رضَاعتِك . . فَهُوَ أخُوكَ .

والنَّاسُ . . كُلُّ النَّاس . . يَعرفُونَ صِلَتنا ويَعرِفُونَ صداقتَنَا . فأنا لا ألعَبُ إلا معَ مُصطفى . . ولا أصيدُ السَّمكَ إلا مع مُصطفى .

قالَ مُصطفى :

– هَا هُوَ المكانُ الَّذِى به ثعابين السَّمَك .

قلتُ :

– ثعابين السَّمك ؟ !

قالَ :

– ثعابين السَّمك . .

وتناولت الصِنارة ووَضعتُ بها الطُعم . . ودلَّيتُها فى الماءِ .

قالَ مُصطفى :

– أمسك الصنارة جيدا. . لأن ثُعبَان السَّمكِ يَجذبُهَا بقوةٍ .

قلت :

– إننى أمسِكهَا جَيدًا . .

وظلت الصِنارة مُدّلاة فى الماء.. ظلت لِفترةٍ طويلةٍ لا تَغمِز .

قلتُ :

– الصنارة لا تَغمِز يا مُصطفى ! !

قَالَ :

– اصبر يا سَيد

ظللتُ صَابرًا .

وصِنارةُ مُصطفى كانتْ تَغمزُ . وَهُو يَتركُها للسَّمك يَجذبها.. لِيجعله يَطمعُ.. يَترك الصِنارةَ ثُمَّ يَجذِبُها فَجأةً.. فَتخرجُ الصنارة خاويةً .

قلتُ :

– السَّمك هُنَا مكَّارٌ يا مُصطفى

قالَ :

– الذى يَصِيدهُ أمكر منه يا سيد

وَظللتُ مُدَلِيا صِنارتِى فى الماءِ . . ومُصطفى ظلَّ مدلِّيا صِنارتهُ مثلى.. وفجـأةً جَذَبَ مُصطفى صِنارته.. فأخرجتُ سَمَكة صَغِيرةً. . صَغِيرة جدًّا.. وضَحكنا..

وأمسكَ مُصطفى بالسَّمكةِ الصَّغِيرة.. ثُمَّ ألقَى بهَا ثانيةً إلى الماءِ.

قُلتُ لَهُ :

– هل هَذا هُوَ ثُعبان السَّمك يا مُصطفى ؟

قَالَ ضاحكًا :

– لابد أنَّـه أرسلها للاستطلاع.. وبعدَ قَلِيلٍ سَيأتِى هُوَ بنفسهِ.

وظللتُ مُدَلِّيًا صِنارتِى فِى الماءِ . وأخذتُ أتَثاءبُ.

كنتُ أرغبُ فِى أن أعودَ إلى البيتِ لأنَامَ.. أو أعملُ واجِب المَدرسةِ.. أو ألعَبُ الكُرة الشرَابِ..

وقلتُ فى نَفْسِى : مَا الَّذى جَاءَ بى إلى هَذَا المكان المُوحِش؟ إن هذا المكانِ الموحِشَ.. لا يبدو أن به ثعبانَ السَّمكِ.

وَفكرتُ فى أنْ أنهضَ.. وأنْ أطوىَ صِنارتى.. لكننى أحسَستُ نقرًا خفِيفًا وجذبًا فِى صِنارتِى.. فأمسكتُ الصِنارةَ بقوةٍ.. وبعد قَليل رأيتُ الصِنارة تَغوصُ بسرعةٍ إلى القاعِ.. فَصَرَخْتُ . . . الصِنارة تَغُوصُ فى الماءِ يا مُصطفى..

فَصَاحَ مُصطفى :

– اجْذِب الصِنارة بقوةٍ

وجَذبتُ الصِنارة بقوةٍ.. لأجدَ ثُعبانَ السَّمكِ.. مُعلقًا يهتز فى صنارتِى..

– ثُعبانَ السَّمك ! ! ثُعبانَ السَّمكِ ! !

وأخذتُ أصرخُ كأننى جُننتُ

ومُصطفى يَصرخُ :

– أبعده عن الماء . . أجذبُهُ إلى الدَّاخِلِ

وأبعدتُه عن الماء . . وجَذبْتُهُ إلى الدَّاخِل

– اضغطْ فوقَ رأسهُ . . وأخرج خُطاف الصنارة مِن فَمِه

وضغطت فوق رأسِه . . وأخرجتُ خُطافَ الصنارة من فَمِهِ .

– ضعه فى علبة الخوص .

ووضعته فى علبة الخوص . . وأنا أُرددُ

– ثُعبان السَّمكِ فى عَلبةِ الخوص ! ! ثُعبانِ السَّمكِ فى علبة الخوص ! !

وأخـذتُ أنظـر إلى ثُعبـان السَّـمكِ بداخـل عُلبـة الخـوص.. لكـمْ حَلمــتُ أن أصيدهُ ! !

ومددتُ يدىَّ وأخرجتهُ منْ دَاخلِ عُلبةِ الخَوص

هَاهُوَ الحلم أخيرًا قَدْ تحقَقَ .

لَكِنَ ثُعبانَ السَّمكِ انزلقَ مِنْ بين يدىَّ.. فارْتَميتُ عَليه..

أمسكتُ ذَيلهُ . . فانْسابَ مِنى داخلاً بين الصخور..

فارتميتُ فوقَ الصخُور صارخًا :

– ارفع هَذهِ الصّخرةَ معى يا مُصطفى

وعندما رَفعنا الصّخرة . . وجدتُه كامنًا أسفلهَا . . فَصحتُ فَرِحًا :

– هَاهَو ثُعبان السَّمك يا مُصطفى

وقبل أن أنقضَ عليه صَاحَ مُصطفى :

– لا تَقتربْ إنّه ثُعبان حَقيقى . .

– ثُعبان حَقِيقى ! !

وانطلقنـــا نعـــدُو . . . .

رقم الإيداع	٢٠٠٠/٤٦٠١
الترقيم الدولى	ISBN 977-02-5978-0

٧/٢٠٠٠/١

طبع بمطابع دار المعارف (ج . م . ع .)